

٢٠ آسمهان


مصرفون
MisrFone

أسمهان
تراجيديا الحياة و والموت

الميلاد:

- أسمهان ابنة فهد الأطرش، بن فرحان بن إبراهيم بن إسماعيل، وقد أسس إسماعيل الزعامة الطرشانية في جبل حوران❖[1]. وكان فهد ممن أُرسلوا إلى اسطنبول للدراسة. وبعد الدارسة بدأ عمله في الحكومات العثمانية. وقد تزوج مرتين، قبل أن يلتقي علياء المنذر، ابنة بلدة حاصبيا في لبنان، وكانت على جانب كبير من الرقة والجاذبية، فوقع فهد في حبها. ومع أنها كانت متزوجة، رتّب أمر خطفها من بيت زوجها، بعد أن وافقت على ذلك، وقد بقيا محاطين بحماية من احتميا به، إلى أن أقر الزواج، عن طريق وسطاء، على وفق العادات الجبلية المعروفة.

أقرّ أهل علياء زواجها من فهد دونما رغبة، إن لم نقل مكرهين، جراء الفوارق في نمط حياة كل منهما. فعلياء على حظ غير قليل من التمدن، وتعيش حياة مستقرة، بينما كان فهد موظفاً في الدولة، وهو عرضةٌ للتنقل الدائم بين المدن والبلدان، التي يُعيّن فيها على وفق متطلبات وظيفته، الشأن الذي لم يرق لأهل علياء.

• سمي جبل حوران بعد ذلك جبل العرب، بتغليب المصطلح السياسي على المصطلح الجغرافي.

كان فهد إبّان تلك المدة، كما تشير بعض الروايات يشغل منصب قائمقام حاصبيا، ثم ما لبث أن عُيّن متصرفاً في منطقة إزمير، وأقام مع أسرته في بلدة ديرجي الواقعة جنوب شرق الأناضول، وبقي هناك زهاء خمسة أعوام. وكانت علياء تنتظر مولوداً، حين قرر فهد الرحيل جرّاء عدم الاستقرار، والاضطرابات في الدولة العثمانية، في العقد الأول من القرن العشرين الميلادي. فركب وزوجته البحر، متجهين إلى بيروت، وخلال رحلتهما ولدت أسمهان في 23 تشرين الثاني عام1912، على أرجح الروايات المتضاربة، وقد اقترح الأب أن تسمى " بحرية "، بينما أرادت الأم أن تسميها آمال، وكانت الغلبة لرأيها، على نحو ما يجري في مثل تلك الحالات.

أقام فهد في بيروت مقر عمله الجديد، وعاشت علياء مدّة ذهبية من حياتها، في تلك المدينة الساحلية المنفتحة، حيث لاقت كل عناية ودلال، وكانت أول امرأة تسوق سيارة في تلك المدينة.

الرحيل

كان يوم ميسلون طعنة نجلاء لأماني العرب، دخلت فيه سورية مرحلة من مراحل الصراع الضاري مع المحتلين الفرنسيين، الذين ما أن وطأت أقدامهم الأراضي السورية حتى عمدوا إلى تقسيمها دويلات على أساس طائفي ومناطقي، وحرصوا على تعيين حكام محليين لها، ولم يُفلح هذا الأسلوب في تطويع أبناء الجبل، الذين رفضوا بغالبيتهم إقامة دويلة في الجبل، وأصروا على أن يبقى جبلهم جزءاً من سورية الأم. وبعد مضي عام على الانتداب، جرت محاولة اغتيال الجنرال غورو " المفوض السامي الفرنسي" واُتهم أدهم خنجر بمحاولة الاغتيال تلك، فيمم الجبل مستجيراً بسلطان الأطرش الذي لم يكن في بيته، فتمكنت السلطات الفرنسية من اعتقاله، وقد أثار ذلك غضب سلطان ولم تفلح جهوده في تحرير أدهم الذي استجار به، بل لم يتورع الفرنسيون عن

إعدامه، فزاد ذلك من النقمة على الفرنسيين، وأشعل فتيل المقاومة في تموز 1922. ولعل حادثة أدهم، والرد عليها من قبل سلطان، ثم قصف الفرنسيين لداره في القريا، قد زعزع إحساس علياء بالطمأنينة، وكان سبباً في رحيلها من الجبل إلى دمشق، ومن هنالك واصلت رحلتها إلى بيروت، معلنة بإصرار، أنها ليست مستعدة لاحتمال الأعمال الحربية، لأنها مفعمة بالحزن على ولديها أنور ووداد، بعد أن اختطفتهما يد المنون، ولم تعد قادرة على احتمال أي أذى؛ يمكن أن يقع على من بقي من أبنائها، فؤاد وفريد وآمال.

لم تطل إقامة علياء في بيروت، وربما يعود ذلك لخوفها من رغبة زوجها بعودتها إلى الجبل، فقد رحلت رغماً عنه وقد يشير ذلك إلى أن حياتهما الزوجية لم تكن في أحسن حالاتها. وقد يكون سبب الرحيل صعوبة العيش في لبنان آنذاك، أو يكون جراء خشيتها من تعقب الفرنسيين لها. فرحلت قاصدة مصر عام1923. فقادت سيارتها بصحبة أولادها إلى حيفا، وهناك نصحها ابنها فؤاد أن تبيع السيارة فباعتها، واستقلت القطار مع أولادها إلى مصر، ولم تكن تحمل وثائق السفر المطلوبة، وحين حاول موظف الحدود منعها من دخول مصر رفضت النزول، وطلبت منه أن يُبرق إلى سعد زغلول زعيم مصر الوطني يُعلمه بالأمر، ففوجئ الموظف بالطلب ولم يصدق أذنيه، ولكنه أبرق جراء إصرارها إلى القاهرة، وفوجئ مرة ثانية بالرد الذي وصلْ من سعد، يقول فيه: " أرحّب بك في مصر يا سيدتي "[1].

هكذا رحلت الطفلة آمال: " أسمهان " من الجبل إلى مصر، لتقول فيما بعد أنها تذكر من أيام طفولتها، أنها كانت سعيدة راضية، وإذ لم يكن في

---

[1] المصدر نفسه ص67 "كان سعد قد كتب إلى سلطان الأطرش قائلاً: سر على بركات الله، فإذا لم يقدر لك خونة الوطن هذه الوصية العظمى حق قدرها فستقدرها لك الأجيال ويسجلها لك التاريخ يا سلطان الشهامة والمروءة".

عيشها ترف، فإنها لم تعرف الحاجة ولا العوز. وقد ارتسم الجبل في وعي أسمهان بصفته موطناً أليفاً، وكل ما فيه يبعث على دهشة الصغيرة، ويثير لديها عذوبة الاكتشاف. كانت كما تذكر تلهو فوق ترابه، ويُسمح لها ولأخوتها أن يلعبوا ما طاب لهم اللعب، كما كانت تشعر ـ كما تقول ـ بالأمن، وبأنها محمية من أي سوء، بينما يتردد على مسامعها أصداء الأحداث والوقائع السياسية والحربية التي انغمس فيها رجال الجبل، ولعلّها وهي في العاشرة من عمرها قد أحسّت الأخطار المحيقة بهذا الجبل الذي أحبته، والذي اضطرت إلى الهرب منه مع أسرتها[1].

الأسرة في مصر:

استأجرت علياء عند وصولها شقة متواضعة في منطقة فقيرة، وأرسل فهد رسالة إلى علياء المخطئة، فكتبت إليه أنها لا تنوي العودة إلى سورية. بل عليه هو أن يأتي إلى مصر، ووصلت رسالة ثانية منه هدد فيها علياء بالطلاق إن لم تعد، ولكن دون جدوى، فتزوج ابنة عمه، وعين قاضياً في السويداء. ومات فهد عام1942. ولم يمر عام واحد على وجود علياء وأولادها في مصر، حتى نضب مورد الأسرة ووقف شبح الجوع بالباب، تقول أسمهان: "بدأت أمي تعمل في خياطة ملابس السيدات، وكان ما تحصل عليه قليلاً ولكنه كفانا شر الجوع"[2]. وهنا بدأت علياء تغني وتُحيي حفلات خاصة، بعد أن تعرّفت بالملحن داود حسني وعازف الكمان سامي الشوا، واتسع رزق الأسرة قليلاً، فأمكن لها أن تُدخل فريد وأسمهان المدرسة لمتابعة الدراسة التي قُطعت. وقد سجلتهما في مدرسة فرنسية كاثوليكية، مستعيرة لهما كنية أخرى هي "كوسا "، واضطرت إلى طلب المساعدة من مدير المدرسة حتى تفي برسوم التعليم.

---

[1] المصدر نفسه ص63

[2] محمد التابعي – أسمهان تروي قصتها ـ مصر – دار الشروق 2008 ص 48

كانت أسمهان تتعلم الفرنسية بشغف إلى جانب العربية ، وكانت الأم تروي من حين لآخر أحداث الثورة السورية لأبنائها ، بعد أن احتلت أخبار معارك الجبل زوايا بارزة في الصحافة العربية "وقد حولت الملاحم التي جرت على بطاح الجبل سلطان الأطرش إلى بطل شعبي تتناقل الجرائد صوره ، وتحكي عن أنباء انتصاراته ، فما كان من التلميذ فريد المزهو بكنيته الحقيقية إلا أن كشف سر انتمائه لأسرة سلطان الأطرش لأحد زملائه ، فأخبر زميله مدير المدرسة بذلك ، فلم يفهم المدير من تلك الحكاية إلا أمراً واحداً ، هو الطلب من علياء المسكينة أن تتحمل رسوم المدرسة الباهظة "[1].

تعود أسمهان بذاكرتها إلى سنوات الحرمان والفقر التي عاشتها في بداية إقامة الأسرة في مصر فتقول : " وقف شبح الجوع بالباب ، وأرسلتني أمي ذات يوم إلى الدكتور عبد الرحمن الشهبندر "أحد الزعماء السوريين الذين أسهموا في إذكاء نار الثورة السورية " وكان يومئذ لاجئاً في مصر ، كي أطلب منه أن يقرضنا شيئاً من المال ، وقطعت الطريق إلى مسكنه على قدمي ، وكان الطريق طويلاً جداً ، ولما قابلته وأبلغته رسالة أمي وشكوت له حالنا ، ناولني ريالاً واحداً ، ولما رأته أمي بكت وبكيت معها. كنت ما أزال صغيرة السن ، ولكنني فهمت يومها أننا أوشكنا أن نصبح من المتسولين ، وتتابع فتقول : " كنت ذات يوم أزور أسرة الأميرالاي محسن بك بالقرب من ميدان عابدين ، وظننت أنهم سيخرجون بسياراتهم فيوصلونني إلى مسكني ، ولكن السماء أمطرت مطراً غزيراً كأفواه القرب ، فعدلوا عن الخروج ، وكان علي أن أعود إلى البيت ، ولم أسمح لنفسي أن أقول لهم إنه ليس في جيبي قرش واحد لركوب الحافلة ، ومشيت تحت وابل المطر تلك المسافة الطويلة بين بيتهم وبيتي "[2]. وخلال فترة العوز تلك جاءت

---

[1] شريفة زهور – أسرار أسمهان – دمشق – دار المدى للثقافة والنشر ـ ص 72

[2] محمد التابعي ـ مصدر سبق ذكره - ـ ص47 و48

مساعدة مادية لعلياء من حيث لا تتوقع، حيث وصل إلى القاهرة الأمريكي "بارون كراين وقد يكون أحد عضوي لجنة " كينغ كراين " التي قدمت إلى سورية لاستطلاع رأي أبنائها حول الانتداب، ورفعت تقريرها الذي يؤكد أن أبناء سورية، لا يريدون سوى الاستقلال. وكان هذا الأمريكي كما يزعم معجباً بسلطان الأطرش وثوار الجبل، فتعاطف مع أحوال علياء، واقترح عليها سفر الأبناء للتعلم في أمريكا فرفضت، ولكنها قبلت أن يقدّم لها مئة دولار معونة شهرية، و مكنّها هذا المبلغ من الانتقال إلى شقة جديدة.

كيف تم اكتشاف صوت أسمهان:

وقع اختيار معلم الموسيقا في المدرسة على آمال وفريد، عندما بدأ يعلّم تلاميذه الصولفيج، وتبين أن علياء قد أورثت صوتها الجميل إلى ولديها، وأخذت في تلك الفترة تخالط المهاجرين اللبنانيين والسوريين، وحددت يوم الثلاثاء لاستقبال الزوار، وكان بعضهم من الموسيقيين المصريين، الذين أتيح لهم سماع صوت علياء بعد أن غنت للإذاعة المصرية. وفي هذا الوقت كانت أسمهان تغني أيضاً، وقد تنازع الموسيقيون اكتشاف صوتها، وأكثر روايات الاكتشاف درامية قدمها المؤلف الموسيقي داود حسني.

كان حسني متعاطفاً مع واقع الأسرة المادي الحرج، وكان يخشى على سمعة الأسرة ويتفهم المشكلة الاجتماعية التي تواجه المشتغلين بالغناء. وحين سمع آمال تغني لم يتمالك نفسه، فأوضح والدمع يسيل من عينيه، أنه عرف فيما مضى، فتاة جميلة الصوت ووضع خطة لتدريبها، لكنها ماتت، وشاء القدر أن تحل أمال محلها. واقترح ألا تغني باسمها الحقيقي، ومنحها لقب " أسمهان " وهو اسم حسناء فارسية في زمن غابر، والاسم يتصف كما يعتقد بالفخامة اللائقة بصوت أمال، وكان حسني يظن أن الاسم الفني يضفي فتنة وغموضاً على المطربات اللواتي لا يُعرفن إلا باسم واحد. وعلى الرغم من

ذلك، ظلت أسمهان على الدوام، تصر على أصدقائها ألا ينادوها إلا باسمها الحقيقي.

بدأ داود حسني يعلمها الغناء، وأصول العزف على العود، وتبّنى محمد القصبجي تدريبها على المقامات، وعلمّها زكريا أحمد قواعد التقنية الصوتية، وأعطاها فريد غصن دروساً في التأليف الموسيقي. وكان التعليم الموسيقي صعباً ومعقداً، غير أن أسمهان، وأخاها فريد استطاعا التعلم في زمن قياسي، من خلال محاكاة ما يسمعانه، وكانا سعيدين بدراساتهما الموسيقا، ولم يخطر في بالهما ما ينتظرهما من نجاحات في عالم الفن.

بداية الطريق:

تّعلم فريد وأسمهان أشكال الموسيقا الشرقية، التي كانت شائعة مثل "الدور" وهو لب الغناء القديم يؤديه مغن واحد مع مجموعة منشدين. والتواشيح والطقطوقة، والقصيدة، إضافة إلى المواويل والأغاني الشعبية اللبنانية والسورية واستوعبا التقنيات الخاصة، والدقة الأسلوبية لهذه الأشكال. ولم يكن طريق الغناء أمام أسمهان معبداً ومفروشاً بالرياحين، إذ كانت النظرة إلى المغنيات محكومة بثقافة تراثية جائرة، لا تعلي من شأن الفنان، غير أن داود حسني أخذ يشجع أسمهان. وبدأت شركة اسطوانات تسجل لها الأغاني بمساعدته، فراحت زميلاتها في المدرسة يسخرن منها. وأصبحت حياتها في المدرسة لا تطاق. فتركت أسمهان المدرسة، واتجهت صوب الفن، ولكنها سرعان ما اكتشفت ضريبة السير على هذا الطريق. تقول: كنت أتألم وأطوي صدري على ما فيه، وأنا مضطرة للغناء أمام جمهور من السكارى يقذفني بالنكات، والألفاظ النابية، وكنت أحس أنني لم أخلق لمثل هذه الأمكنة، فأثور ولكن ما الحيلة، كان يجب أن نعيش، وكان علينا أنا وفريد أن نعمل لنعيل الأسرة. ولقد جعلتني صالات عماد الدين أقف على قدمي ساعات طويلة، أغني من أجل

جنيه واحد، لأحس وأنا في مطلع الشباب بالذل والألم، ولقد رفضت الجلوس مع زبائن الصالة، وكان العقد الذي أوقعه ينصّ على ذلك في أية صالة أغنّي فيها"[1].

وعلى الرغم ممّا رافق البداية من مشاعر متناقضة، فقد كانت أسمهان تحب الغناء، وتغني دائماً لنفسها ولمن تحب. وقد دُعيت لتغني في نادي منصور عام1931، مع فرقة القصبجي الذي تعهد بحراسة أسمهان. ويصف الصحفي محمد التابعي غناء أسمهان في نادي منصور قائلاً: " كنّا نُصغي إلى صوت شجي رقيق، صوت فتاة صغيرة، واقفة على المنصة، دمثة المظهر، تلبس ثوباً أسود، وإزاراً أسود ملفوفاً حول رأسها ووجهها. كانت تحّدق إلى الأمام من غير أن تتلفت يمنة أو يسرة. يا للمشاعر العذبة المحزنة التي أشاعتها. وما لامس روحي في تلك الليلة، كان شيئاً فتياً مكشوفاً محتاجاً، يبحث عن رأفة صادقة، كان ذلك الشيء في ذلك الصوت الحزين النحيل، الذي بلغ أذني أول مرة، شيء ظل يبلغني حتى الساعة، ولم أعد قط إلى صالون ماري منصور ولم أسمع هناك صوت أسمهان مرة أخرى، ولكن لم أنس صوتها ولا اسمها[2].

أسمهان وفؤاد

أخذ فؤاد يراقب أخته جراء إحساسه أنه المسؤول عنها، وفي ضوء موقفه من حرفة الغناء وتبعاتها، خاف على أخته الجميلة من العمل في الوسط الفني، وأدرك أن نموها أخذ يكتمل، وإن الرجال ينجذبون إليها، ليس بوصفها مطربة فقط، وإنما لأنها صبية تمتلك الجاذبية التي تأسر قلوب من حولها. وكان فؤاد مفعماً بالتقاليد والمفاهيم التي تّربى عليها، وبخاصة المتعلقة بصون العرض،

---

[1] التابعي- مصدر سبق ذكره ص49

[2] المصدر السابق ص16

والحفاظ على الشرف الذي ارتبط في ثقافتنا بسلامة سلوك المرأة، فالسموأل يقول:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

وقد تلّقى فؤاد رسالة من والده تعودْ إلى 13 كانون أول لسنة 1928، وجّهها الأب له ولأخيه فريد يتضّرع فيها إلى الله أن يأمر بالائتلاف كما أمر فيها بالفراق، ثم يدعوهما للحفاظ على سمعة أختهما أسمهان قائلاً: "بخصوص الحبيبة إيميلي يلزم أن تحافظا عليها كما نفسيكما، وعلمّوها الأدب وحسن الأخلاق والحرية، حيث أنتم من بيت عريق في الحسب والنسب... فحذار عليها من البغي والفساد فذلك عار لا يمحى مدى الدهر"[1]. ربما عجلت هذه الرسالة من عودة فؤاد إلى الجبل، وقد وّطن العزم على تأمين الحل المناسب المتعلق بمستقبل أسمهان، ورأى أن الزواج خير سبيل لإنقاذ أخته، وكان السماح لها أن تتزوج من واحد ليس من أبناء الجبل، أمراً لا يمكن لفؤاد تصوره، فوصل الجبل في صيف 1928، وأنشأ صداقة مع الأمير حسن الأطرش ثم كرر زيارته إليه مع فريد عام1929، وكان هاجس زواج أسمهان، هو من أهم دواعي مجيئه إلى الجبل، وحين رجع من رحلته الثانية كان قد صمم على أمر اتفق عليه مع الأمير حسن.

قصة زواج أسمهان:

ما إن وصل فؤاد إلى المنزل في القاهرة، حتى طلب طلباً حاسماً من الضيوف الموسيقيين مغادرة المنزل، وقال لأخته تعرفين أن نساءنا لا يصاحبن رجالاً غرباء، ولا يتزوجن من خارج دائرتهم ومذهبهم، والأمير حسن يريدك

[1] http: //www. Fnoonarabia. com/news_new/2009/7/28002. jpg

زوجة. ولم تكن أمال حينها تفكر بالزواج، وكلمات الإعجاب كانت تنهمر على أذنيها ممن حولها من كل فج وصوب، ولم يخف الرجال حولها رشقها بعبارات الاستحسان، والتغزل بجمال عينيها، ولكن روحها كانت مشدودة إلى شيء آخر، يعبر عن ذاتها، كانت هذه الروح هائمةً في عالم الغناء الرحب.

حين وصل الأمير حسن الأطرش إلى مصر، أحسّت على الفور أنه مفتون بها، وقد استطاع بخبرته وذكائه أن يثير اهتمامها ويبعث في نفسها الإعجاب، فبدا لها شاباً ربع القامة، أشقر، صارم المظهر إلى حد ما، وسيماً، بل حلو التقاطيع. وقد رفضت الأم هذا الزواج، وربما يعود ذلك من وجهة نظر أسمهان، إلى أنها كانت الأوزة التي تبيض الذهب للأسرة. سافر حسن الأطرش إلى الجبل، دون أن يحسم أمر زواجه، فقامت قيامة الأسرة كما تقول أسمهان " وخشيت أمي على حياتها ولما عاد الأمير للمرة الثانية وافقت الأم على الزواج بشروط تضمن لها حياةً طيبةً، وعيشاً كريماً، فوافق الأمير، وقدّم لها خمسمائة جنيه من الذهب "[1].

وتزوجت أسمهان من الأمير حسن زواجاً تقليدياً ومرتجلاً، تحكمه في النهاية إرادة الأهل ومفاهيمهم، وبخاصة فؤاد وليس من السهل معرفة مشاعر أسمهان الحقيقية من هذا الزواج الذي ارتضته، "ولكنها وضعت ـ شأن أمها ـ شروطها، فأصرّت على العيش في دمشق، وزيارة القاهرة كل شتاء، وتم الزواج عام1933 "[2]، ليشكل نقلة نوعية في حياتها.،

استمتعت أسمهان في البداية، بالحيوية الدمشقية، فكانت تتجول في سوق الحميدية، مفتونة بتنوع زخارفه وجاذبيتها، وكانت تسمع أغانيها المسجلة على أسطوانات، أثناء سيرها في طرقات دمشق، وتشتري القماش والعطور، وسعت

---

[1] شريفة زهور – مصدر سابق – ص 100
[2] المصدر السابق ص98

إلى التكيف مع حياتها الجديدة ما استطاعت، ورغبت أن تتكيف مع الحياة الزوجية، بعفويتها وتلقائيتها وذكائها، ولكن سرعان ما تبين لها أن أحداث الجبل كانت تشغل زوجها عنها، وهي الفتاة التي تتعطش في مقتبل عمرها لحياة تنعم فيها بالحفاوة وتحظى بالاهتمام.

حاول الأمير أن يقتنص الوقت الذي يتذوق فيه متعة زواجه بأسمهان، وقد أفلح ذات مرة ببعث السعادة في أعماقها، وذلك يوم اصطحبها إلى بيروت، لقضاء إجازة فقالت له في لحظة من الغبطة والرضى: "إنني أتنازل عن شرطيّ الأول بالبقاء في دمشق وسأرافقك إلى الجبل، وسوف أقضي الشتاء معك متخلية عن شرطي الثاني، أعني السفر إلى القاهرة، فلم تكد أذنيه تصدق ما سمع فقال لها: أتمزحين، فقالت إنني أعني ما أقول"[1]

أسمهان في الجبل:

كانت الأسرة تملك مقراً للضيافة في السويداء، ولكن الأمير حسن يفضل الإقامة في قريتة عرى، التي تبعد عن السويداء 12 كم جنوباً، ومنزله في عرى عبارة عن دار ترمز إلى زعامة آل الأطرش بنيت عام1878، وهي تشبه الحصن في بنيانها المصنوع من حجارة سوداء. ومن أجل أسمهان قرر الأمير أن يضيف إلى الدار أربع غرف أخرى، ويطلب الأثاث الذي أرادته من دمشق وبيروت.

في عرى، مشت أسمهان عبر المدخل المقنطر للمنزل، وتعرفت الغرف فوق المضافة، وتطلعت إلى الباحة، ومقاعد المضافة الحجرية، كل ذلك ذكّرها بالقلاع التي قرأت عنها في كتب المدرسة الفرنسية. كانت دار عرى مقامة على قمة تلة، تستقبل الرياح التي تهب في كل اتجاه، وقد حملت أسمهان إلى عرى

---

[1] شريفة زهور – مصدر سابق – ص 51

فطرتها النقية، وحسّها الإنساني، وتفكيرها المفعم بمحبة الخير للناس، ولم تتخطَّ حينها الثانية والعشرين. بدأت تمارس حياتها العامة باقتدار، وبما تملك شخصيتها من سحر وتأثير لا يقاوم، كان أكثر الزوار فظاظة، يتخلون عن غرورهم أمامها. ولقد تعاطفت مع شكاوى الناس من ظلم الفرنسيين، ومدّت يد العون لمن يطلبها، وأصرّت على تأمين المياه النقية ونقلها عبر الأنابيب إلى بلدة عرى، وملأت هذه المأثرة عيون أبناء البلدة وقلوبهم بالامتنان والتقدير، وما زالوا يتذكرون هذه الواقعة إلى اليوم. وفي الجبل أقامت أسمهان حفلات فنية، ورقص الضيوف في قصر الإمارة وقد صدح فيه الغناء وعلت أنغام الموسيقى.

كان الأمير مولعاً بالصيد، فتعلمت أسمهان ركوب الخيل على وجه السرعة، ورافقت الأمير وهو يطارد الغزلان والأرانب والطيور، في أرض وعرة، ولم تكن أقل منه قدرة على تحمل مشاق الصيد المقرونة بالمتعة. ووضعت أسمهان جلّ طاقتها من أجل التكيف مع مظاهر الحياة في الريف، والاندماج الحقيقي في قضايا الناس الاجتماعية، إلا أنها بدأت مع الأيام تشعر وكأنها طائر مهيض الجناح، حطّ في أرض وعرة وتحت سماء مكفهرة. فأخذ يعتريها اكتئاب ممتزج بالسأم، حرصت على كتمانه، ولكنها فقدت شهيتها للطعام، وطرأ عليها تغير سرعان ما اكتشفه زوجها، فاقترح عليها الانتقال إلى السويداء حيث تتحرر هناك من الشعور بالكآبة، وتجد البيئة المناسبة التي تروق لها. ولمّا كان الأمير دائم التنقل بين دمشق والسويداء، فقد انعكس ذلك على حياتهما الزوجية فتلفعت بغيوم الحياة العامة القلقة، ولتفادي ذلك شرع الأمير في بناء منزل جديد وكبير في قلب السويداء، واستغرق بناؤه عامين وأُنجز عام1936م، وطلبت أسمهان من العمال، أن يزرعوا أشجاراً دائمة الخضرة حول المبنى، وما زال بعض هذا الشجر حول البيت شاهداً على ذوقها الرفيع حتى اليوم.

في عام1936، وقع الفرنسيون مع السوريين معاهدة غيرت وضع الساحل والجبل وضمتهما من جديد إلى الوطن الأم، بعد أن كانت قد قسّمت سورية إلى خمس دويلات، ومع ذلك ظل الفرنسيون يعبثون بوحدة السوريين، ويحاولون استمالة بعض أبناء الجبل لإبقائه منفصلاً، ولكن الأمير حسن الأطرش دعم المعاهدة لصيانة وحدة البلاد، وكانت أسمهان ناضجة بما يكفي لتفهم مغزى الأحداث، وما تنطوي عليه سياسة الانقسامات في الجبل. وكان أبناؤه يعرفون مدى قوة شخصية الأميرة، التي تتيح لها أن تتوسط بينهم وبين الفرنسيين وقد أتقنت لغتهم، وترافق ذلك مع دورها الاجتماعي والإنساني، الذي جعل فتيات الجبل يلجأن إليها بوصفها نصيرة للعدالة، ويُروى عنها أنها حمت إحدى الفتيات في قضية (خطف) وهو ما يلجأ إليه العاشقان، حين يعترض الأهل على زواجهما، وقد التجأ الخاطف والمخطوفة إلى بيتها، فدافعت عن حقهما بالزواج بكل جرأة.

أمضت أسمهان ما يزيد عن أربع سنوات في الجبل، كانت تلك السنوات مفعمة بالأحداث التي استأثرت باهتمامها، غير أن حنينها إلى مصر ظل يستيقظ في نفسها من حين لآخر. وقد جعلها ذلك حائرة بين ما هو ممكن، وما هو غير ممكن. عذّبها توقها لعالم الغناء، ووصل إلى أسماعها خبر نجاحات فريد، بعد أن بدأ التمثيل، وحيّرها تحوّل عاطفتها نحو أمها، وحيّرها الجبل بما في حياته من وقائع آسرة أحياناً ومنفرة أحياناً. وحيّرها أمرٌ آخر إذ لم تدرك سرّ التغيّرات التي غمرت نفسها، وطرأت على جسدها لتكتشف أنها حامل، وبعث ذلك في أعماقها مشاعر غريبة، ولازمها إحساس دائم بالاختناق والغثيان، والاشتعال الداخلي. ومما يبعث على الغرابة، أنها راحت تبحث عن وسيلة تتحرر فيها من حملها فلم تُفلح، وانبثقت لديها فكرة السفر إلى القاهرة فسافرت، وهناك التمّ شمل الأسرة والتقت مع أصدقائها من جديد. وفي القاهرة قابلت أحد الأطباء بهدف التخلص من الحمل مرة أخرى، . ولا يمكن معرفة سرّ إصرارها على

التخلص من حملها، إذ من المعروف أن الرغبةْ بالإنجاب تمتلك النساء بصورة عامة، غير أن محاولاتها باءت بالفشل. وجاء اليوم الذي ولدت فيه ابنتها كاميليا، وسرعان ما تحولت أسمهان إلى أم.

كان على أسمهان أن تعود إلى الجبل، فتركت ابنتها في مصر، الأمر الذي يخفي رغبتها أن تبقى كاميليا مسوّغاً لزيارة القاهرة، تلك المدينة التي حفرت على صفحة روحها ذكريات عميقة الجذور، فاحتفى الأمير بعودة زوجته إلى البيت، وأقام لها الحفلات الباذخة، وتقاطرت أرتال الضيوف إلى المنزل. إبان هذه الفترة كان الجنرال الفيشي " بيو" يجول في المنطقة، فعرّج على منزل الأمير حسن بالسويداء، وكتب عن أسمهان قائلاً: " إنها لم تتكيف تماماً مع مشاق الحياة في الجبل، فحاولت أن تخلق في السويداء الحزينة، جواً غريباً، كانت تستقبلنا بغير نقاب، وفي ثوب أبيض مكسر، وتتكلم فرنسية واضحة ونقية، تعلمتها في المدرسة، وكان يُقدم لنا الكوكتيل أمام بار من خشب " الماهو جاني في صالون المنزل، وقد أحاط ضباط فرنسيون وفرسان في أزيائهم بالأميرة التي كانت تضحك، وهي تشرب مزيج الشمبانيا والويسكي "[1].

على الرغم مما يوحي هذا الوصف من رغد العيش الذي ترفل فيه أسمهان، فإنها لم تتردد في عقد صفقة على تسجيل أغانيها حين التقت في دمشق صاحب شركة اسطوانات بيضافون، وأبلغت زوجها أنها قررت السفر إلى مصر، وحين سألها الأمير متى ستعودين أجابت: " إن كنت تطلب مني أن أعود فاحلم بذلك دائماً"[2].

---

[1] شريفة زهور – مصدر سابق ص110

[2] المصدر السابق ص111

العودة إلى مصر

عادت أسمهان إلى مصر مجددة صداقاتها القديمة، مقيمة صداقات جديدة، أهمها صداقة أمينة البارودي، وهي امرأة حسناء وغنية وجريئة ومتحررة، وأصبحت المرأتان من أكثر النساء ظهوراً في حفلات مدينة القاهرة، وأكثرهن لفتاً للأنظار، واتسعت دائرة أسمهان، وجُذبت إليها بعض كبار المسؤولين المصريين، وأهم الشخصيات الفنية والاجتماعية، وارتفع أجرها في الحفلات الغنائية الخاصة التي تدعى إليها في القاهرة وخارجها. وبدأت تغني في الإذاعة شهرياً، ونالت عن غنائها في أول فيلم دون أن تظهر فيه مئة جنيه. ولكن علاقة أسمهان بأخيها فؤاد تدهورت سريعاً، وكان يُضيره أن تعبث أخته المتزوجة مثل مراهقة، وبدأ يجابهها، معترضاً على سلوكها، محبطاً محاولات خروجها، وكشفت مراقبة فؤاد وقيوده، أن الاستقلالية هي جوهر شخصية أسمهان، فجابهت سلوك فؤاد بالهروب من البيت إلى جهات شتى. نامت على كثبان الرمل تحت النجوم قرب الأهرامات، والتجأت إلى مسكن ريفي لإحدى الأسر الصديقة للأسرة، وسعت هذه الأسرة لإصلاح ذات البين. وذات مرة ذهب فؤاد لإحضار أخته الهاربة فوجدها تغني للفلاحين مأخوذة ببساطتهم، وقد فتنتهم رقتها، ولين جانبها، وجمال صوتها وصدق ابتساماتها. فارتاع مما رأى، وعادت معه إلى البيت يملأ الغم صدرها، غير أنها ما لبثت أن واصلت حياتها، بالطريقة التي تروقها. فكتب فؤاد إلى الأمير حسن، فجاء إلى القاهرة. ووجدت أسمهان نفسها وقد طلب إليها زوجها العودة إلى الجبل أمام أمر لا مفر منه، وكان من الصعب عليها أن تقاوم وبدت هادئة المظهر، مستسلمة لمنطق الحياة الزوجية الطبيعي والصارم.

في الجبل من جديد

ما أن وصلت أسمهان إلى الجبل، حتى أحست بالبون الشاسع بين ضجيج الحياة في القاهرة وصخبها، وما فيها من فتنة وجاذبية، وبين نمط الحياة الزوجية في الجبل، رغم ما يمكن لزوجٍ كالأمير حسن أن يقدمه، ليبعث البهجة في نفس زوجته، وبدأ يأس بعيد الغور يتسلل إلى أعماق أسمهان، حاولت تخطيه على طريقتها، فكانت تنهض قبيل الفجر لتمتطي جواداً، تجتاز فيه كروم بلدة عرى وصخورها، وتصل إلى حقول الخوخ في بساتين بلدة القريا. وذات مرة راحت تهمز جوادها، ليعدو بأقصى سرعة ويسير على حافة الخطر، وكانت الصبايا اللواتي يرافقنها يراقبنها وقلوبهن إلى حلوقهن، وقد نجت يومئذ بأعجوبة. ولعل هذا السلوك، وما فيه من تهور، يكشف بصورة ما عن حالة أسمهان النفسية، ويُظهر ما في أعماقها من اضطراب. كان الزوج – محافظ الجبل آنذاك ـ في شغل شاغل عنها، فعزمت على الذهاب إلى دمشق، علّها تتعزى وتنعم بالسكينة. فسعى فؤاد الذي كان يرافقها كظلها والذي قدم معها من القاهرة إلى التضييق عليها، مستخدماً الأسلوب ذاته الذي كانت تنفر منه، فرافقت أحد أبناء الأسرة إلى قصر الشرق في دمشق، زاعمة أنها تريد شراء الثياب، وفي الفندق شعرت أن يد القدر القاسية تمسك بخناقها، وامتلأت نفسها بالسأم والاكتئاب، فحاولت الانتحار بتناول كميةٍ كبيرةٍ من الدواء ولكن أُنقذت قبل تفاقم الخطر. وسعت إلى إخفاء الأمر عن زوجها. وخرجت من ذاك الوضع الشائك، الذي كانت فيه مع وصول برقية من القاهرة، تحمل نبأ مرض الأم، فحزمت أسمهان أمتعتها على وجه السرعة، ورحلت مع فؤاد إلى مصر لتطمئن على صحة والدتها.

إمّا الفن وإمّا الزواج

استأنفت أسمهان بعد عودتها حياتها الفنية، فغنت وحققت نجاحاً هائلاً، بدا وكأنه الرد الطبيعي على توقها لمتابعة الفن الذي خلقت له. فطلبت من القصبجي أن يلحن لها، فتلقف دعوتها، ولحّن لها ثلاث أغنيات تباعاً، وعاد

فؤاد إلى سابق عهده، بل تمادى في محاصرة أسمهان ومراقبتها، وتمادت هي في الخروج من البيت ساعة تشاء، واللقاء بمن تشاء، وترددت على أماكن اللهو، ووصل التوتر بينهما إلى الذروة، وكان فريد يميل إلى أسمهان في صراعها مع فؤاد، مما عذب الأم الحائرة. في هذه الأثناء وصل الأمير حسن إلى مصر، وقصد فندق ميناهاوس في الجيزة، حيث تقيم أسمهان بعد أن صممت على الانفصال عن الأسرة. كانت تجلس مع ثلة من الطبقة الراقية، وحالما وقعت عيناها على زوجها، تركت صحبها لمعالجة الأمر. كان حسن يكتم غيظه وآلامه الشديدة، فبدأت هي الكلام عبر شجاعتها وتوقد ذهنها، مختارة ما تريد قوله، فأكدت أنها حاولت أن تعيش معه، وتتبنى قضيته المناوئة للفرنسيين. قائلة: " وقفت معك من أجل الاستقلال والتحرر، أجل وقفت ولكنني خلقت من أجل هدف آخر، إنني مخلوقة للفن ـ تكلّمت على عجل وأوحت أنها راغبة بالعودة إلى ضيوفها، وكأنها تدفعه إلى قول ما لا يحب قوله ـ فسألها هل تريد الطلاق فأجابته: نعم أريد"[1].

ثمة أسئلة عديدة تتعلق بجوابها! هل كان هذا الجواب يجسّد موقفاً مدروساً صادراً عن محاكمة عقلية مديدة، أم أنه كان مرتجلاً، وليد اللحظة التي كانت أسمهان تشعر فيها بنوع من الحرية، بعد رحيلها عن البيت وامتلاكها الاستقلالية التي تصبو إليها؟ وهل يُعبّر هذا الموقف عن حالة التناقض الأصيل في طبع أسمهان والذي تميزت به على الدوام وتأرجحت على حباله مرات ومرات حائرة معذبة؟. وماذا كان على الأمير حسن أن يفعل؟ لقد جعلته تلك المقابلة مزعزعاً، ولدى عودته إلى الجبل تزوجْ هند علم الدين وذلك عام1939م بحثاً عن التماسك والنسيان. ومع أنه تزوج تسع نساء تباعاً، غير أنه هام بأسمهان، وأعماه حبه لها عن مشكلاته معها. ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى

[1] شريفة زهور – مصدر سابق ـ 145

سمات أسمهان المتفردة المختلفة عن زوجاته الأخريات، فقد كنّ بنات بيئتهن، بينما كان عالم أسمهان أرحب، وثقافتها أشمل، وقد رأى كيف تمكنت بمواهبها وحيويتها الخارقة، من جمع أقربائه حوله عبر نشاطها السياسي والاجتماعي.

أما أسمهان فقد كانت تصريحاتها، وسلوكها عامة، بل وأغانيها تساعد إلى حد بعيد على معرفة حالتها فقد أصبحت بعد الطلاق هائمة حزينة، وأمعنت في الشراب. جافاها النوم، وصارت تقضي الليالي خارج المنزل، وأنفقت مع صديقاتها وأصدقائها أموالاً كثيرة بحيث لم تبقِ أحياناً في جيوبها فلساً واحداً.

تقول أسمهان: إن حياتها مع أمها وشقيقها فؤاد أصبحت لا تطاق، كان فؤاد، يتعقبها ويحصي عليها الأنفاس وكان يبتزها ويأخذ نقودها. ولعله لم يكن الأخ المناسب لها بما يحمل في أعماقه من ذكورية شرقية بلغت حدها الأقصى، وقد أثرت رعونته وقسوته في حياتها بصورة جلية، وربما كان العامل الأهم في معاناتها واضطرابها. لقد ضربها ذات مرة ضرباً موجعاً، وسجنها في غرفتها، ولم يسمح لها بالخروج، إلا بعد أن تلقى أحمد حسنين رئيس الديوان الملكي، مذكّراً بموعد حفلة في بيته تغني فيها أسمهان. كانت بعد تلك الواقعة المؤذية شديدة التأثر، وعزمت ألاّ تعود إلى بيت الأسرة، وقالت في تلك اللحظة": سأعود إلى الجبل، وأُقبل قدمي حسن كي يردني زوجة له، فإذا رفض توسلت إليه أن يبقيني خادمة في داره، وهذا خير ألف مرة من العيش الذي أعيشه"[1].

أكانت جادة فيما تقول؟ أكانت حقاً مصممة على العودة؟ أم كانت أقوالها في لحظة غضب وليدة نفورها من سلوك فؤاد المنفر؟ لم تعد أسمهان إلى الجبل، وقد هدأ اضطراب روحها بعد أن تدخلت أسرة حكمدار القاهرة سليم زكي باشا، صديقة الأسرة فأصلحت الأمر إلى حين.

---

[1] التابعي مصدر سابق ـ ص92

أسمهان والقصبجي

كان القصبجي من أكثر الموسيقيين المصريين معرفة بطبقات صوت أسمهان، وأشدهم اهتماماً بها، ولقد سعى جاهداً أن يقدم لها أفضل ما لديه من ألحان. و أظهرت الألحان الثلاثة التي وضعها للأغاني والقصائد التي غنتها في هذه المرحلة، أنها تُعبر خير تعبير عن حياتها، وعما يجيش في صدرها "فليلى" في القصيدة الأولى تتمنى " أن يرى صاحبها "البراق" ما تعانيه، ولم تكن ليلى سوى أسمهان الحزينة الممزقة من ظلم الأهل:

ليت للبراق عيناً فترى　　ما ألاقي من بلاء وعنا
عذبت أختكمُ يا ويلكم　　بعذاب النكر صبحاً ومسا
غللّوني قيدوني ضربوا　　جسمي الناحلَ مني بالعصا
فأنا كارهةٌ بغيكمُ　　ويقيني الموت شيءٌ يُرتجى

وفي القصيدة الثانية "اسقنيها" وهي قصيدة الشاعر بشارة الخوري تغني أسمهان همومها وعذابات روحها:

أسقنيها بأبي أنت وأمي　　لا لتجلو الهم عني أنت همي

أما عمل القصبجي الثالث فكان قصيدة شعبية تجسد عذاب الفرقة والهجر، ولعلّها بوح شجي، لما حدث بينها وبين الأمير حسن:

فرق ما بينا ليه الزمان!　　والعمر كله بعدك هوان
فؤادي من حبك مجروح　　وقلبي من بُعدك بنوح
تعال شوف يا حبيب الروح　　العمر كله بعدك هوان
أسباب شقايا ذُل الفؤاد　　والعين ضناها كثر السهاد
إمتى يعود لي عهد الوداد　　والعمر كله بعدك هوان

في غمرة هذه الوقائع، بدا صيت أسمهان الفني ينتشر كالضياء، كانت تُسمع من محطة الإذاعة المصرية، وبدأ متعهدو الحفلات يتقاطرون إليها، وكثرت تنقلاتها في مدن مصر وأريافها: يوم في المنصورة، وآخر بكفر الشيخ، وثالث بالمحلة الكبرى، ورابع في طنطا. وكانت الحفلات ترهقها، وطالما أكّدت أنها تضيق ذرعاً بالغناء في الحفلات العامة. وقد دعتها جامعة فؤاد الأول في تشرين الأول عام1940، للغناء تكريماً لمديرها، واحتشد لسماعها نحو خمسة آلاف، من كبار المدعوين وطلبة الجامعة، وغنّت قصيدة للشاعر عبد الغني حسن، وغادرت مسرعة بعد ما يربو على نصف ساعة رغم التصفيق والاحتجاج، وعاتبها مدير الإذاعة قائلاً: "لقد كان أمامك أكثر من خمسة آلاف سامع، يهتفون بعد أن سيطرت عليهم وسحرتهم بصوتك، وكان بمقدورك أن تبقيهم فرحين إلى مطلع الفجر. ولكنك ضيعت على نفسك فرصة لن تعوض"[1].

ودون ريب فمثل هذه الحادثة تلقي مزيداً من الضوء على شخصية أسمهان، وعلى الكيفية التي تتعامل فيها مع الحياة. لقد أحبت الغناء، وكرهت تبعاته، وعذبها الإطراء كما عذبها همس الآخرين المسموم، وأقلقتها الإشاعات التي تسم أجواء الفنانين، وتجعل الواحد منهم ريشة في مهب الريح.

أسمهان وبدرخان

ظل طلاق أسمهان من الأمير حسن جرحاً، ينكأ كلما كثرت الأقاويل حوله، وفكرت من جديد بالزواج من مصري، للبقاء في البلد، بعد أن لاح في أفق حياتها خطر إبعادها عن مصر، بطلب من إدارة الجوازات والجنسية المصرية.

---

[1] التابعي مصدر سابق ـ ص119

وأخذت تبحث عن حلٍّ لهذه المعضلة، كان ذلك عام1941، حين بدأت بالعمل في فيلم "انتصار الشباب" مع المخرج أحمد بدرخان، الذي درس فنون السينما في باريس، وكان من أسرة عريقة وثرية، وقد تنامت الثقة بينه وبين أسمهان، ورأت في الزواج منه حلاً واقعياً لمعاناتها، فرفض الأهل بصورة مطلقة هذا الزواج، فهجرت البيت نهائياً في 7/ 3 / 1941، وانتقلت إلى شقة صديقتها أمينة البارودي، وكان هذا آخر عهدها بالحياة مع أسرتها تحت سقف واحد.

وتزوجت أسمهان بدرخان زواجاً عرفياً، ذلك لأن موظفي الدولة المصرية لم يوافقوا على الزواج، إلا إذا أحضرت وثيقة أنها غير متزوجة، ولم يكن باستطاعة أسمهان إحضار مثل هذه الوثيقة، لأنها لم تكن مطلقة من الأمير حسن رسمياً ووثائقياً. وكان ثمة قانون يمنع المصريين من الزواج بأجانب دون مسوغ مقبول. وهكذا كان هذا الزواج سيء الطالع، ولم يحقق الإحساس بالأمان الذي كانت أسمهان تبحث عنه، وتم إلغاؤه ولم يمضِ عليه أكثر من شهر. وقد مزّقت أسمهان عقد الزواج العرفي من بدرخان في لحظة من لحظات توترها وهياجها وصراعها الضاري معه. وشعرت بعد ذلك بمزيد من الكآبة والضعف والإحساس بالمهانة، وراحت تبحث عن أفق آخر يبدد غيوم الكآبة التي أحاطت بها من كل جانب.

أسمهان والحرب العالمية:

كانت معارك الحرب العالمية الثانية آنذاك على أشدها، وكان الفرنسيون منقسمين على أنفسهم بين أنصار حكومة فيشي الخاضعة للألمان، وأنصار فرنسا الحرة بزعامة الجنرال ديغول. وقد وصل ديغول عام1941 إلى القاهرة، وألقى كلمة في قاعة الجامعة الأمريكية، وكانت أسمهان حاضرة، وقد التُقطت لها صورة وعلى سترتها علقت وسام اللورين " رمز فرنسا الحرة المناهضة للهتلرية " وكان ديغول قد وضع بالتنسيق مع حكومة تشرشل خطة لاجتياح سورية،

وطرد أنصار حكومة فيشي منها. وكي يسهل تحقيق هذا الهدف، كان لا بد من ضمان موقف أبناء الجبل، الذين في وسعهم منع وصول قوات الحلفاء إلى دمشق. وقد وجدت استطلاعات الدبلوماسية البريطانية السرية في القاهرة، أن أسمهان خير من يقوم بهذا الدور، فجرى اللقاء بها و شُرحت لها عملية الحلفاء بهدف الخلاص من الفيشيين في سورية، وطُلب منها المساعدة على ذلك.

لا شك أن أسمهان قد فكرت ملياً في خطورة المهمة المسندة إليها، كانت تدرك أن ذلك سيشكل انعطافاً في حياتها، تلج فيه حقلاً مليئاً بالألغام، فأوار الحرب العالمية لا زال ملتهباً، والبريطانيون في أحلك فترات هذه الحرب. ورغم أن أسمهان لم يكن لديها خبرة كافية بما كلفت به، ورغم قلقها من مغبة ما طُلب منها إلا أنّها وافقت. ودون ريب فثمة أسباب عديدة لهذه الموافقة، أهمها يعود إلى طبيعة أسمهان، وحبّها لركوب المغامرة والخطر، كما جاءها العرض البريطاني وهي في أسوأ حالاتها النفسية والمادية، بسبب طلاقها من جهة وانشقاقها عن الأسرة من جهة أخرى. وربما استيقظ ماضيها وجعلها تتوجه بأبصارها إلى الجبل، وإلى الأمير حسن بخاصة للخروج من مأزقها المادي والنفسي. وثمة من يشير إلى البعد الوطني الذي نشأت عليه أسمهان منذ الطفولة وحرصها على استقلال بلادها، بعد أن أكد الإنجليز وحلفاؤهم الفرنسيون دعم ذلك الاستقلال. فقد أصدر الجنرال الفرنسي كاترو بياناً إبان تلك الفترة يفصح عن خطط الحلفاء جاء فيه: "أيها السوريون واللبنانيون، في اللحظة التي تدخل فيها أراضيكم قوات فرنسا، المتحدة مع قوات الإمبراطورية البريطانية، أعلن أنني أتولى تمثيل سلطات فرنسا التقليدية والحقيقية باسم قائدها الجنرال ديغول، وأنا قادم لأنهي نظام الانتداب، وأعلن حريتكم واستقلالكم في لحظة عظيمة من تاريخ فرنسا، وبصوت أبنائها الذين يحاربون من أجل الحرية في العالم"[1]

---

[1] شريفة زهور مصدر سبق ذكره ص170

وربما أسهمت هذه الأسباب والعوامل مجتمعة في موافقة أسمهان والإقدام على المغامرة.

تقول أسمهان عشية سفرها ـ لمحدثها ـ مسوغة ما أقدمت عليه كاشفة سر رحيلها إلى الجبل، " لا تنس أننا، نستطيع أن نبعث فرساننا إلى القتال، وكم من مرة في عهد الأتراك وصلت طلائع أبناء الجبل إلى دمشق، وهم الذين أشعلوا الثورة السورية الكبرى، "[1].

غادرت أسمهان مصر في 26 أيار 1941، وأقامت حفلة في بيتها قبل السفر للإيهام، وفي هذه الحفلة تعرفت على ماري قلادة، التي أصبحت فيما بعد صديقتها المقربة جداً. وفي صباح اليوم التالي جلست في القطار الذاهب إلى القدس، وهناك وُضعت أمامها التعليمات، التي تنطوي على استدعاء أخيها الأكبر غير الشقيق طلال إلى الحدود الأردنية- السورية، بهدف وصولها إلى الجبل بأمان. وحين وصلت متخفية، اجتمعت بالأمير حسن الأطرش، شارحة الغاية التي جاءت من أجلها. وحين انتهت من إبلاغه رسالتها، قرن الأمير موافقته على ذلك بعودتها إليه، وظهر جلياً ما يخبئ في أعماقه من مشاعر نحوها، تجعله مستعداً للتضحية بكل شيء في سبيل الظفر بها من جديد.

يقول فؤاد مازحاً: " إنها لمفارقة أن يحتاج الأمير إلى قوة هتلر وموسوليني، حتى يتمكن من إنجاح مسعاه الشخصي مع أسمهان"[2]. كانت مثل هذه العودة إلى الأمير حسن خروجاً على العرف وعلى تقاليد الجبل، وكان لابد من موافقة العائلة وزعمائها على صنيع الأمير المحدث والمثير. وقد وافقت زعامة الجبل على الأمرين معاً، على الزواج وعلى أن تتقدم قوات الحلفاء عبر السهل الواقع غربي الجبل، تجنبا لتلف الزرع والتفريط بالمحصول. وكان على الإنجليز وعلى أنصار

---

[1] شريفة زهور مصدر سبق ذكره ص144
[2] المصدر نفسه ـ ص169

فرنسا الحرة أن يقّدموا ثمن انحياز أبناء الجبل، وزعماء عشائر البدو لهم في مواجهة خصومهم الموالين لحكومة فيشي، وكانت أسمهان هي العرّاب لتحقيق هذا الأمر.

مكثت أسمهان أسبوعاً في الجبل، وانتقلت إلى دمشق وأقامت في فندق قصر الشرق في دمشق، وهناك جاء من يخبرها أن الفيشيين قد كشفوا أمرها، وقرروا إعدامها، فهربت مع الأمير فاعور أحد أمراء البدو، بعد أن طلت وجهها بالقار الأسود، وارتدت ثياب عبد ليسهل عليها تخطي الدوريات الفرنسية المناوية، ولتجاوز الحدود السورية الأردنية مرة أخرى. وثمة رواية تزعم أنها ما إن تخطت الحدود وودعت مرافقها، حتى أخذت تغني ما يطيب لها وتغرد بما يُطمئن روحها، فيتردد صدى صوتها في الفضاء الرحب.

وصلت أسمهان إلى الأردن، وعادت إلى الجبل من جديد، برفقة القوات البريطانية، وقوات فرنسا الحرة حيث تم طرد الفيشيين، واستعادت أسمهان اسم الأميرة، بعد أن طلّق الأمير حسن هند علم الدين وتزوجها. وانتشر خبر الزواج في مطلع تموز1941، وكان يوم الزواج الذي أقيمت مراسمه في العاصمة، حدثاً مشهوداً حضرته شخصيات بارزة من ضباط الحلفاء بينهم الجنرال كاترو، والجنرال ديفيس، وإدوارد سبيرز الذي يقول:

" رأيت أميرة آل الأطرش أول مرة في الحفل الكبير، الذي زفت فيه إلى الأمير ثانية.. كانت رائعة في تلك الأمسية التي لبست فيها ثياباً أوربية، وعلمت أنها أجمل بكثير في الثياب العربية. لقد كانت وستبقى أجمل النساء اللواتي رأيتهن في حياتي، كانت عيناها خضراوين مثل لون البحر الذي عليك أن تمخره في طريقك إلى الفردوس، كانتا معطوفتين إلى الأعلى عند الطرفين مثل جناحي نورس "[1].

---

[1] شريفة زهور مصدر سبق ذكره ص177

وكتب المراسل الحربي لوكالة الأنباء التابعة للقوات الفرنسية الحرة يقول:

" أُحتفل بدمشق بزواج الأميرة آمال الأطرش، بابن عمها الأمير حسن، وأدلت بتصريح قالت فيه: " لقد ودّعتُ الحياة الفنية وداعاً أخيراً، لأنصرف إلى الحياة الزوجية فأجعلها سعيدة هانئة، وإلى خدمة بلادي وأهلي بالاشتراك مع زوجي، وهذه أمنية عزيزة عليّ محببة إلى نفسي"[1].

وتتفق آراء بعض ممن تحدث عن أسمهان بهذه المناسبة على أن جمالها ساحر، وحفلت آراؤهم باستخدام المجاز والتفنن البلاغي في وصف هذا الجمال، وبخاصة جمال عينيها وقد كتب الضابط البريطاني ـــ Steven Hastings يقول: " كان الواحد يراهما داكنتين، والآخر يبدوان له مثل كهرمان مغبّش يصدر ضوءاً ثاقباً مثل شمس وراء ضباب مدينةHighland ـــ عينان نجلاوان خضراوان متحديتان تستحوذان عليك كأنك مثبت على شعاع راداري"[2]. " كما يُروى أن الجنرال البريطاني ديفيس" وقع في حبها، وعرض عليها الزواج، وكان ذلك سبباً في إنهاء مهمته وإعادته إلى بريطانيا بعد أن اشتعلت غيرة المحيطين بأسمهان من الجنرالات الإنجليز"[3]، فأوقعوا به.

بعد طرد أنصار فيشي، ركب الأمير حسن وأسمهان جوادين، وسارا في دمشق المحررة ترافقهما سرية من الفرسان شاهري السيوف، وقد كوفئ الزوجان باحتلال مقعدين على المنصة قرب ديغول، في حفل الاحتفاء بالنصر، والتقطت لهما صور مع ديغول مجتمعين ومنفصلين[4]

---

[1] التابعي ص159

[2] لمصدر نفسه ص126

[3] سعيد الجزائري – أسمهان اللحن الخالد – بيروت – 1990 ـ ـ ص 40

[4] المصدر نفسه ص178

توفي عبد الغفار الأطرش عام1942 ، وكان آنذاك وزيراً للدفاع في الحكومة السورية. فعقد آل الأطرش اجتماعاً في فندق أمية ، لاختيار خلف لعبد الغفار ، يرضى بالمنصب ، وقد توجهت أسمهان إلى سلطان الأطرش مباشرة سائلة إذا كان يقبل أن يكون وزيراً للدفاع ، فرفض وأيدت رفضه بوضوح ، ولعلّها أرادت بذلك أن ترى زوجها يتقدّم ، ويصبح وزيراً للدفاع وهكذا كان[1].

حياة صاخبة

برز في غمرة هذه الأحداث السريعة ، والخصبة ، والمتدفقة ، تأثير كبير على حياة أسمهان ، تمثل بنزوعها نحو الترف ، والغنى ، والبذخ فهي زوجة أمير ووزير دفاع ، كانت تعيش في منزلها في ساحة سرسق بدمشق ، وكانت تتنقل كما يحلو لها بين فندق القديس جورج وفندق قصر الشرق ، و تتجه إلى صوفر في بيروت لتنعم بالهواء العليل ، وتميزت بالإسراف الأسطوري ، وكأن المال الذي يصل إلى يديها يحرق راحتيها ، فتعمد إلى الخلاص منه ، وقد التفّت حولها في بيروت بعض السيدات ، والآنسات من أكبر الأسر اللبنانية الشهيرة ، يتملقنها ويحطنها بمظاهر الإجلال والإكرام ، طمعاً بمالها وبنفوذها وبمكانتها لدى السلطات الفرنسية والإنجليزية ، فاستثمرت هذه المكانة ونجحت وساطتها لديهم ، لتجني بعض الأسر اللبنانية من وراء ذلك الأموال ، والأرباح الطائلة. "واعتادت الأميرة في تلك المرحلة على زيارة القدس في أيلول ، والنزول في الجناح الملكي ، لتعيش في الفندق حياة الأميرات ، وتُقيم في صالونه الكبير الملحق بالجناح الملكي حفلات الاستقبال التي تّذكر بما يحدث في أي بلاط عريق"[2]. وأصبح هذا الفندق مسرحاً من أهم المسارح المتعلقة بحياة أسمهان ، فالفندق مركز الضباط الأجانب ، وملتقى رجال السياسة وأعيان المنطقة ، وعلى هذا

---

[1] زهور – مصدر سابق ـ ص185

[2] التابعي – مصدر سابق ـ ص190

المسرح جرى تنافس بين الملكة نازلي، وأسمهان لاحتلال الجناح الملكي في الفندق. وفي هذا الفندق جُمعت عن أسمهان قصص، واخُتلقت أقاويل، وتعددت شائعات، تفننت في وصف تناولها المفرط للكحول، حتى الإدمان، وسهرها حتى الصباح، وهي تدخن دونما توقف، والناس بصورة عامة يقرنون بين المطربين وشتى الرذائل، فالتدخين وتعاطي الكحول يتعارض مع الأنوثة والأخلاق، وقد يتسامح المجتمع مع مدمني القمار والإنفاق المفرط، ولكنه ينتقد إفراط النساء في الإنفاق، ولا يتصورهن مقامرات.

كان الأمير حسن غارقاً في مهامه الجديدة، ونشاطه السياسي حتى أذنيه، ولم يبال في البداية بتنقلات أسمهان، وما يروى عن حفلاتها، ولولا كثرة نفقاتها لظل تاركاً لزوجته الحبل على غاربه، غير أن نفقاتها بلغت حداً جعلته يخشى أن تبذر أسمهان ماله كله. وكان عليه أن يحدد المبالغ المعطاة لها. كانت أسمهان تتلقى مال زوجها، وتتلقى أيضاً مال البريطانيين تقديراً لما قامت به، ولكن علاقتها بالبريطانيين أصيبت بالفتور لأسباب مختلفة، منها ضعف السرية لديها، ومنها تبذيرها الذي لا حدود له. فقدم لها الفرنسيون الدعم المالي بهدف استمالتها. وقد أنفقت أسمهان المال يمنة ويسرة، ولعل هذا يتعلق بطباعها الخاصة، فأخوها فؤاد يعد ذلك نزعة متأصلة في شخصيتها. كانت سخية إلى درجة أسطورية كما يقول التابعي فقد " رأت ذات مرة، امرأة شابة في ملابس رثة ممزقة، قد افترشت بلاط الشارع وأسندت رأسها إلى الجدار، وهي في سبات عميق، وعلى صدرها يرقد طفل رضيع، أحاطته بذراعيها، نظرت أسمهان إليهما وفتحت حقيبتها، وأخرجت ورقة مالية دستها في صدر المرأة، فأفاقت مذعورة مستردة طفلها من أسمهان، التي طمأنتها فنظرت إلى الورقة المالية وكأنها لا تفهم، لأن هذه البائسة لم تر طوال حياتها ورقة مالية بهذه القيمة وقد تكون هذه الورقة هي كل ما كانت تملكه أسمهان في تلك الآونة"[1].

---

[1] التابعي – مصدر سابق – ص90

لقد أقامت في فندق صوفر الكبير في لبنان، يحيط بها حراس تمنطقوا بخناجر مزينة بخيوط الذهب والفضة، يقدمون لها عقود الزهر كل صباح وكل مساء"[1]، وكانت تنثر عليهم نقودها بسخاء لا يُصدق، كما كانت تغدق المال على الفقراء والفنانين والموسيقيين أيام شهر رمضان. وقد دُعيت يوم ذكرى سقوط الباستيل إلى مقر الجنرال كاترو. كانت ترتدي حجاباً على الطريقة المصرية، وقد أعطت كل جندي قدم لها التحية مئة ليرة، وكان للّيرة قيمة ذهبية آنذاك، ومن الطريف أن الجو كان حاراً، وكانت أسمهان تتصبب عرقاً، وفيما كانت تمسح وجهها لمح كاترو (مسدس براوننغ) في حقيبتها فقال لها: "ويحك يا أميرتي أتيت إلى مقري حاملة مسدساً، أنا لا أخشى إلا أمثالك. "[2]

كان إسرافها حديث الناس، وحين عصفت المجاعة بفقراء لبنان، خصصت الأميرة يوم الاثنين من كل أسبوع، لتوزيع الطحين مجاناً على الناس، وعممت ذلك في الصحافة.

خلاف أسمهان مع الحلفاء:

كانت التقديرات المتعلقة بنتائج الحرب العالمية الثانية محيرة، وشاعت فكرة انتصار المحور، في وقت استطاعت فيه قوات هتلر أن تجتاح أراضي الاتحاد السوفياتي الشاسعة، وتقترب من العاصمة. وكانت أسمهان آنذاك قد لاحظت هي والأمير حسن، أن ضمانات الاستقلال التي وعد بها كاترو السوريين واللبنانيين لم تتحقق، ، بل ذهبت أدراج الرياح، جرّاء سياسات الحلفاء الاستعمارية القائمة على التعاون والتنافس بآن معاً، وجراء أطماع كل دولة منها في البقاء على الأرض السورية، وقد ترافق ذلك مع تصريحات ومواقف

---

[1] التابعي – مصدر سابق ـ ص205

[2] زهور ـ ص187

متناقضة لكلا الفريقين، فقد كتب آنذاك الضابط البريطاني ليتلتون إلى الفرنسيين "أود أن أغتنم هذه الفرصة لأؤكد لكم أننا نحن البريطانيين، نعترف بالمصالح التاريخية لفرنسا في المشرق، وليس لبريطانيا العظمى أية مصلحة في سورية أو لبنان ما عدا كسب الحرب."[1] بينما كان الفرنسيون يؤكدون أن لبريطانيا رغبة حقيقية في البقاء على الأرض السورية. كل ذلك أسهم في ظهور شعور شعبي سوري مناهض للفرنسيين، وللغربيين عامة، وكان بعض الضباط الفرنسيين آنذاك يثيرون غضب أبناء الجبل بتصرفاتهم الرعناء، ويُذكر هنا أن أسمهان بذلت جهداً كي تخلّص الجبل من غطرسة الكولونيل "بوفيه" وعسفه. وكل ذلك جعلها تفكر جدياً في مجابهة سياسة الحلفاء، ولعلّ ذلك كان سبباً رئيسياً في موافقتها على إقامة صلات مع المحور، ومثل هذا التغير لم يخلق بمحض المصادفة، بل كان هناك العديد من السوريين يرون في ذلك، شكلاً من أشكال مجابهة تنكر الحلفاء لعهودهم.

ركبت أسمهان سيارة أجرة إلى طرابلس، ثم مضت بالقطار إلى حلب في طريقها إلى استانبول أواخر عام1942، "وحسب قول شقيقها منير ـ وهو شاهد عيان رافق أسمهان التي لم تذهب وحدها – أخرجها الجنود البريطانيون من المحطة قبل أن يركبا القطار، مدعين الخشية على حياة الأميرة، وعادوا بها إلى بيروت، ثم أنهم قيدوا حركاتها، وفرضوا عليها الإقامة في بيروت "[2]. ومن الجدير بالذكر "أن صلات أسمهان السياسية المتنوعة والمعقدة والمتبدلة، قد أطلقت العنان فيما بعد لأقلام بعض الصحفيين، على اختلاف مواقعهم وانتماءاتهم، لاتهامها بعلاقات مع الاستخبارات البريطانية، والألمانية، والفرنسية، وبلغت تلك الاتهامات، حد القول إنها كانت ترفع التقارير الخطية،

---

[1] زهور ـ ص180

[2] المصدر نفسه – ص 191

لأجهزة المخابرات الفرنسية والبريطانية في آن معاً، غير أن طبيعة أسمهان الخاصة وما اتسمت به من شعور بالأنفة، ومن الإحساس العميق بالأصالة، ينفي عنها إلى حد بعيد تلك الاتهامات. ويمكن الإشارة هنا إلى ما كتبه " كيم فيلبيي" الذي اخترق أجهزة الاستخبارات البريطانية عاملاً لمصلحة روسيا، ، فقد كشف عام 1963، أسماء المسؤولين والسياسيين العرب، الذين تعاملوا مع الاستخبارات البريطانية على مدى عشرات السنين، ولم يذكر أسمهان في عدادهم"[1]

لم تستمر إقامة أسمهان الجبرية التي فرضها الإنجليز عليها طويلاً، واستأنفت حياتها وزياراتها ورحلاتها، ولكنها أصبحت مسكونة بالتوتر والقلق، وذات يوم " تلقت وهي في غرفتها مكالمة من مكان قريب، ولعلعت طلقات، وكادت أن تصيبها حين تحركت للرد على الهاتف، ولم يُشاهد أحد هناك. غير أن الفرنسيين والبريطانيين ما انفكوا يتعقبون المرأة التي يمكن أن تؤذيهم بلسانها "[2]. لقد تناقلت الصحف الخبر، وكان له دوي في الجبل، إذ نزل الناس للشوارع وهم يهتفون بغضب ضد الفرنسيين والإنجليز. ولازم أسمهان الشعور بعدم الأمن، ووصلت إلى يقين بأن بقاءها في سورية ولبنان أصبح مستحيلا فطلبت، في غمرة هذه الأحداث من زوجها، السماح لها بالذهاب إلى مصر، لزيارة ابنتها كاميليا، فما كان من الأمير إلا وسافر إلى مصر لإحضار ابنته. ودعا السلطات الفرنسية إلى عدم السماح لأسمهان بالسفر خارج لبنان أثناء غيابه، ولشدّ ما أغضبها ذلك، ولم تحصل على موافقة كاترو بالسفر، إلا بعد عودة الأمير. فانتقلت إلى فنذق الملك داود بالقدس وأحسّت أنها مريضة ووحيدة، وأن إحدى رئتيها مصابة، فاستدعت صديقتها ماري قلادة من مصر للعناية بها، وجاء الأمير حسن ليعود بها إلى منزله، وزعمت أسمهان أنه لم

---

[1] سعيد الجزائري ـ أسمهان – مصدر سابق ـ ص152
[2] شريفة زهور – مصدر سابق – ص 204

يأتِ ليطمئن على زوجته إثر مرضها، بل جاء غاضباً ليقول: إن صبره قد نفد بسبب سلوك زوجته، فإذا أقام في السويداء أقامت في دمشق، وإذا جاء إلى دمشق انتقلت إلى بيروت، وإذا حضر إلى بيروت، فإنها تتذرّع بضرورة الذهاب إلى القدس، وقد أصبحت في هذا السلوك حديث الناس.

خشيت أسمهان المريضة، من أن العودة مُع زوجها ستحد من قدرتها على الانتقال كما يحلو لها، وأصيبت بحالة اكتئاب شديدة، وتراءى لها الانتحار مخرجاً، "وقد دخلت المشرفة إلى غرفتها فوجدتها هامدة، فدعت طبيباً وأسهم بإنقاذها من الموت، وفوجئ الأمير بذلك، فدخل عليها متألماً، وأدرك أن عودتها معه أمر عصي عن التحقيق فتركها ورحل"[1]. وربما كان يخالجها الشعور بأن العيش ضمن دائرة نفوذ الأمير في سورية ولبنان غير محتمل، وبدأت تفكر بالعودة إلى مصر.

العودة إلى القاهرة:

تلقت أسمهان عرضاً سينمائياً من أستوديو مصر، أوائل عام 1944، وطلبت أجراً عالياً وصل إلى سبعة عشر ألف جنيه، وهو أعلى أجر يمكن أن يتقاضاه الفنان آنذاك، ولم يُسمع به من قبل.

كانت أسمهان تعرف صعوبة العودة إلى مصر، فثمة إرادة مصرية تعترض على إقامتها في القاهرة، وكانت فكرة الزواج بمصري هي السبيل الذي يسهل لها العودة، مع أنها لم تكن في أعماقها راغبة أن تهوي في لجة زواج آخر. وقد وصلت في تلك المدّة الراقصة تحية كاريوكا، وزوجها أحمد سالم إلى فندق الملك داود، واتفق أحمد سالم وأسمهان بصورة مفاجئة على الزواج، في غياب تحية

---

(1) زهور ـ مصدر سابق ـ ص198

كاريوكا التي كانت تحيي إحدى حفلاتها خارج القدس. وثمة روايتان مختلفتان لهذا الحدث إحداهما تقول إنها أعلمته أن الزواج منه وسيلة دخول إلى مصر، وستدفع له خمسة آلاف جنيه مقابل ذلك فوافق. والثانية تقول إن أحمد سالم استغل غياب زوجته، وعرض على أسمهان الزواج عرض العاشق، فوافقت وطلق على الفور تحية كاريوكا.

كان باستطاعة سعيد زكي مدير إدارة الهجرة والجوازات الحيلولة دون عودتها، رغم زواجها بأحمد سالم. غير أنه تلقى تقريراً من قنصلية مصر بالقدس، يُفيد أن حياة أسمهان مهددة بالموت من الناقمين عليها. فسمح لها بدخول مصر وقابلها ليقول لها: "إننا نعدّك ابنة مصر، لأنك أمضيت فيها سنّي حياتك، أكثر مما أمضيت في وطنك، ولا مانع عندنا مطلقاً من أن تقيمي هنا ما طابت لك الإقامة"[1]، ويمكن قراءة ما جاء بين السطور في هذا اللقاء، فهي تبين أن السلطات المصرية، وليس السلطات الأجنبية وحدها كانت تتعقب أسمهان، وترصد تحركاتها.

لم تكن حياة أسمهان مع أحمد سالم أفضل من حياتها مع بدرخان، فتبعات الزواج وقيوده الموضوعية هي هي. وإن اختلفت طبيعتها، وقد أظهرت حياة أسمهان الزوجية القصيرة والمتقطعة، أنها نموذج للمرأة المشبعة بالتفرد والاستقلال. فسلوكها ينبعث عن رغبة دفينة في أن تصنع ما تشاء، وتلتقي من تشاء، وتسافر مع من تشاء، وحيث تشاء، ولم تكن الطاعة ولا الهدوء ولا الاستقرار من طبيعتها، وهذه كلها من أركان الزواج الطبيعي.

بدأت أسمهان العمل في فيلمها الجديد "غرام وانتقام" وكانت تعيش في منزل أحمد سالم، وكان الزوجان متماثلين في العناد والمزاج المتفجر. وسرعان ما

---

[1] التابعي ـ مصدر سابق ـ ص253

بدأ أحمد سالم يضيق بسلوك أسمهان، وحين راح يستوضح عن تصرفاتها في غدوّها ورواحها غير آبهةٍ برأي زوجها، تفاقم الأمر بينهما. أكدت أسمهان أنها حرة، وإنها ليست المرأة التي تُسأل أين ذهبت؟ وبمن التقت؟. وفي ذروة إحدى المشاجرات أطلق أحمد على أسمهان الرصاص من مسدسه، فلجأت إلى الجيران وأبلغت الشرطة، فحضروا وحاول ضابط الشرطة الإمساك بأحمد شاهراً عليه مسدسه، وأدى الشجار بينهما إلى خروج إحدى الرصاصات فجاءت برئة أحمد سالم فنقل إلى المشفى.

أما أسمهان فقد خرجت للعمل في فيلم غرام وانتقام، وبعد العمل لم تعد إلى البيت، بل توجهت مع صديقتها ماري قلادة إلى رأس البر، بهدف الاستراحة والخلود إلى السكينة والهدوء بعد العاصفة الزوجية، وفي الطريق كانت السيارة تسير محاذية القناة، فرمى السائق نفسه بعيداً عن القناة، فهوت السيارة فيها، وغرقت الصديقتان لتتحول هذه المأساة المروعة إلى حدث مدوٍّ وأكمل هذا الموت المبكر تراجيديا الحياة بتراجيديا الموت.

لقد تعددت الآراء في تفسير ما جرى، وكثرت التساؤلات حوله: هل كان مدبّراً بفعل الغيرة والتنافس الفني المعروف، الذي نشأ بين أسمهان وأم كلثوم؟ أأيادٍ بريطانية تختفي خلفه؟ أم كان لهذا الموت سبب آخر يتصل بمجرى حياتها الزوجية؟ هل يتعلق بحسابات بين قوى محلية تتقن تدبير حوادث القتل والتصفيات؟ كانت أسمهان التي استيقظت باكراً صباح الجمعة 14 تموز ترغب الذهاب إلى رأس البر بالقطار فهل المصادفة هي التي جعلت السائق يقترح عليها أن تذهب بسيارة من استوديو مصر الذي يعمل فيه، بحجة أن مقاعد القطار كلها محجوزة؟ وهل من قبيل المصادفة أن تكون تلك السيارة ببابين بحيث يصعب الخروج منها؟ ثم ألا يبعث على الشك ما ورد في محضر الشرطة أن السائق مجهول؟ لقد وصلت أسمهان حيّةً إلى المشفى وبدا وكأنما ثمة إرادة سياسية منعت إنقاذها بإجراء عملية جراحية ناجحة، كل هذه التساؤلات وغيرها ما زالت

قائمة حتى اليوم فموت أسمهان التراجيدي انطوى في غياهب الزمن كاللغز ينتظر من يفك رموزه.

أسمهان وهاجس الموت

سيطر هاجس الموت المبكر على أسمهان، وعبرت عن مخاوفها منه مراراً، وكانت بذلك تصغي إلى صوت داخلي ينبعث من أعماقها، وإلى حدس نادر الوقوع. فكانت تخاف مما يخبئه لها المستقبل، وتخشى تصاريف الزمن وكانت كثيراً ما تهمس لصديقاتها وأصدقائها، أنها لن تعيش طويلاً وهذا ما جعلها لا تبالي إلا بنداء حياتها الداخلي، وأقصى مناها أن تروي ظمأها للحياة كما يروق لها قبل الرحيل، وهذا ما جعل نصائح الناصحين لها، كي تكف عن الإسراف في التدخين والشراب دونما جدوى يقول الكاتب مصطفى أمين " إنها كانت تتصرف وكأنها في زيارة خاطفة للدنيا"[1]. لقد صاغت عن دراية قدرها، وفهمت وضعها المفتقر للأمان، وتقبلت الضعف البشري ضعفها، وضعف الاخرين حولها، وظل هاجس الموت يخترق علاقاتها. ولعل من المصادفات العجيبة ـ كما يروي التابعي "أنها كانت في طريقها إلى رأس البر تتمرن على غناء قصيدة المعرّي:

غير مجدٍ في ملتي واعتقادي   نوح باك ولا ترنم شادِ

وقرب المكان الذي ماتت فيه، كان ثمة آلة بخارية يقترب صوتها ويعلو، وحين وصلت أسمهان إلى قول المعرّي:

صاحِ هذي قبورنا تملأ الرحب   فأين القبور من عهد عادِ

---

[1] التابعي ـ مصدر سابق ـ ص 126

تقلصت عضلات وجهها، وغشي صفاء عينيها رعب مباغت، وأخفت وجهها بيديها، وبعد لحظات، وقد اختفى صوت الآلة البخارية قالت أسمهان: "لقد خيّل إلي أنها دقات دفوف الجنازة وأنا ما سمعت هذا الدق مرة إلا انتابني رعب شديد، وفي السويداء بالقرب من دار الأمير آلة للطحن، كنت أتحاشى المرور بالقرب منها حتى لا أسمع صوت دقاتها لأنه يذكرني بقرع دفوف الجنازة"[1].

مكانة أسمهان الفنية

أحب الغناء، أحب أن أغني دائماً، أغني لمن أحب، ولمن أرتاح، هذه الكلمات كانت ترددها أسمهان دوماً، فتعبر عن رؤيتها لفن الغناء، وتقوم هذه الرؤية بداية على الحب. والتجربة الإنسانية توضح بجلاء أن حب عمل ما هو أهم عوامل النجاح فيه. ودون ريب فإن آثار أسمهان الفنية هي التي جعلت منها امرأة مشهورة، ولقد أحرزت تلك الشهرة بالتأدية الواضحة المرهفة للمعاني، وبطريقتها في الأداء. كما يقوم نجاحها على تمكّنها من اللغة العربية التي تتكلمها النخبة، وعلى أسلوبها العاطفي المناسب لكلمات هذه اللغة، وإضفاء إحساسها على عباراتها.

كانت نصوص أغانيها تشتمل على القصيدة، وعلى المقطوعات الشعرية للمونولوج: (الشكل الأحدث للقصائد المغناة بصوت منفرد) وعلى الطقطوقة: (الأغنية الخفيفة باللهجة الشعبية) وعلى الديالوج: (الغناء الثنائي). وتعددت موضوعات أغانيها وتراوحت بين الحب، والمدح، والأغاني الوجدانية، والتاريخية والاجتماعية. وكتب أغانيها عدد من المؤلفين أشهرهم: أحمد شوقي، وأحمد رامي، وبيرم التونسي، ويوسف بدروس وغيرهم.

---

[1] التابعي – مصدر سابق ـ ص106

ولقد قسّم النقد الموسيقي في مصر عمل الفنانين إلى مراحل تعكس المناخ الاجتماعي في القرن العشرين، فالثلاثينات مرحلة " الرومانسية " والأربعينات مرحلة " الأغنية " الشعبية " والخمسينات مرحلة " الكلاسيكية الجديدة " وبعد ذلك بدأت مرحلة " الأعمال الفنية المستحدثة " غير أن أسمهان اختزلت هذه المراحل، وأنتجت عام 1941، أعمالاً يمكن تسميتها: رومانسية، وشعبية، وكلاسيكية جديدة، وحديثة، واستطاعت أن تفلت من التصنيف المرحلي، ويعود ذلك إلى تعدد مواهبها، وتطور غنائها، فبراعتها الصوتية، وأداؤها المثير للإعجاب، اعتمدا على تراث الأغنية العربية القديم، مما جعلها تستوعب نظام المقامات، مع إدماج هذا الاستيعاب في الغناء المرتجل، وقد استفادت من المزايا الشعرية للغة العربية بغية خلق ديناميكية، ولبعث تواصل غنائي وعاطفي مع جمهورها، وأظهر ذلك كله قدرتها الفائقة على ترجمة الموضوعات الغنائية ترجمة خلّاقة، وهي التي أتاحت للجمهور أن يتذوق فن الطرب الذي لا يحسنه إلا مطرب متفوق ففي أغنية: "هل تيّم البان" زيّنت أسمهان البيت بنغمات منسابة انسياباً سريعاً ومؤثراً، رغم العبارات الطويلة، وغلب التحكم في الصوت على الأداء، وأضحت بعد غنائها هذه القصيدة الفريدة الطويلة—كما يقول صميم الشريف ـ قمة في الغناء، وقمة في الأداء تغني بصوتها الشجي على الدنيا، وتشع بها الدنيا" [1].

كما أن النغمة الأدبية، والتوزيع القديم للموسيقى، والسمة الكلاسيكية هي الغالبة على أغنية " أسقينها بأبي أنت وأمي" وفيها تتضح الرشاقة الصوتية، والقوة غير العادية، والإلقاء المركز.

وتُعد أغنية " رجعت لك "مثالاً بديعاً على العمل المحكم، والتنغيم الحاد، والتعبير الحديث، وفيها يبرز سعة صوتها.

---

(1) صميم الشريف — الأغنية العربية — دمشق — وزارة الثقافة — 1981 ص ـ 221

غنت أسمهان عدداً من الأغاني بكلمات وألحان بسيطة ووثيقة الارتباط بالموضوعات الشعبية السورية والمصرية. ولحن لها عبد الوهاب أغنية " محلاها عيشة الفلاح "، ولحن لها أخوها فريد " أيدي في أيدك "و " يا بدع الورد " وقد تقدمت الصفوف في عالم الغناء، لأنها استطاعت تطعيم الغناء العربي بقواعد الغناء الأوربي في وقت مبكر، ولم يكن التأثر بالغرب مجرد محاكاة من جانب أسمهان، وملحنيها الذين اقتبسوا من "بيتهوفن" ومن " تشايكوفسكي". بل هو تأليف جديد وكما يرى الشريف "فإن أغنية " فرق ما بيننا " ليست امتزاجاً ناجحاً للقديم والجديد بل إنجاز موسيقي حقيقي". [1]

كما أن أغنية "المحمل الشريف" من القوة بحيث تبدو أسمهان وكأنها مقرئة تتقدم جمعاً من المنشدين إلى المركز الروحي للعالم الإسلامي:

عليك صلاة الله وسلامه

شفاعه يا جد الحسنين

دا محملك رجعت أيامه

هنيه وتملي به العين



يقول الدكتور زكي مبارك " إنه ما سمع غناء أشد كآبة من هذا الغناء ولا صوتاً أعمق حزناً من هذا الصوت[2]".

ويروى أن من أحب الأغاني إلى قلبها أغنية حزينة دامعة، وهي منظومة لشاعر لبناني فقد شقيقه الصغير الوحيد وبكاه بألفاظ هي قطرات من ذوب قلبه كانت تبدأ الأغنية ومطلعها " أنا والنار" وهي جالسة بين أصحابها، ولكنها لا تكاد تمضي في غناء هذه المرثية بين الآهات والزفرات المحرقة، حتى تتهاوى من

---

[1] المصدر نفسه – ص 229

[2] شريفة زهور ـ مصدر سابق ـ ص 130

مقعدها إلى أرض الغرفة وتنهي غناءها في همس ممدود، وقد أخفت وجهها بيديها ودموعها تبلل السجاد"[1].

ولعلّ محمد القصبجي هو أكثر الملحنين الذين تميزوا بالوفاء لأسمهان، وحين سمعها لأول مرة، امتلأ محياه بالدهشة وقال: " إن هذا الصوت من الفردوس"[2]، وكانت أسمهان تجسد عبقريته، ولما رحلت لم تجد تلك الطاقة الموسيقية الخلاقة متنفساً لها، أما السنباطي فقد لحن أغنية " حديث عينين " لأم كلثوم:

يـــا لعينيـــك ويـــا لـــي   مـــن تـــسابيح الخيـــال

فيهمـــا ذكـــرى مـــن الحـــب   ومـــن ســـهد الليـــالي

وبعد أن عزفت أم كلثوم عن أداء الإيقاعات الصارمة لموسيقا السنباطي في تلك الأغنية، اقتنع بإعطاء اللحن لأسمهان فنجحت حيث لم تنجح أم كلثوم، ومرة ثانية أفلحت أسمهان في تقديم أغنية "يا طيور" التي لحنها القصبجي وضمنها مقطع السبرانو.

وتتجلى براعة أسمهان الفنية في أغنية "يا ديرتي":

يـا ديرتي مالك علينا لوم
لا تعتبي لومك على من خان
حنا روينا سيوفنا من القوم
مثل الردي ما نرخصك بثمان
وإن ما خذينا حقنا المهضوم
يا ديرتي ما حنا لك بسكان

---

[1] التابعي – مصدر سابق ـ ص118
[2] المصدر نفسه – ص 167

ولهذه الأغنية مكانة أثيرة في نفوس أبناء محافظة السويداء بخاصة وتتجلى قوة الكلمات في مماهاة المغنية مع بيئتها ونضال شعبها الوطني، " وهي تستحضر شعرهم الشعبي في مقاومة الظلم والاحتلال، سواء أقدمت عليه سلطة عثمانية، أم فرنسية أم بريطانية وتربط معاني هذا الشعر معارك الجبل بميسلون بدنشواي وغزة، وبكل المعارك والانتفاضات التي جرت وتجري، وتعبر عن علاقة أسمهان بأسلافها وبقريبها سلطان المجاهد العنيد في سبيل الاستقلال "[1].

وتتبع أهمية الأغنية الفنية في مدى السيرانو الدرامي الذي لا يستطيع أي مغنٍ أن يمضي به بقولها: " ما نرخصك بثمان " إلى نهاية المقطع. بينما يسود في أيامنا الأداء الرديء التبسيطي، الذي تؤديه المغنية بجسدها ومفاتنها لا بصوتها.

إن تجربة أسمهان الفنية تشير بوضوح إلى قيمتها ومكانتها التي تمثلت في صوتها، وفي ما تركته من إرث فني هام، ومن تجربة موسيقية – غنائية لم تتكرر فأشكال الغناء مثل الأوبريت، ، والديالوغ، وقصائد الحب، ، وحضور أسمهان السينمائي القصير، وكل إنجازاتها الغنائية، جعلها كما يرى النقاد والموسيقيون تسهم بصورة ما في تطور الموسيقا العربية في القرن العشرين وهذا حسبها.

الأفول

مثلت حياة أسمهان القصيرة خير تمثيل خلاصة موضوعات ثقافية وسياسية واجتماعية وإبداعية، وجسدت الجدل المضطرب حول دخول النساء معترك الحياة العامة، وفي مجال الغناء بخاصة، لما يحيط بعمل النساء في الغناء غالباً، من إشاعات منسوجة بإحكام يختلط فيها الحابل بالنابل.

---

[1] شريفة زهور – ص 243

وقد برز في هذه الحياة خطان رئيسان الخط الأول: الطموح فلقد اجترحت بسالة طموحاتها دوراً للمرأة، تمردت فيه على العوائق المألوفة، وأصبحت رمزاً للجنسوية في كفاحها الأزلي دفاعاً عن الأنوثة، وعن حقها الإنساني في العمل، والتذوق، والاندماج، والحرية، والحب، والكفاح، وقد تطورت تجربتها الاستثنائية في سياق سنوات النصف الأول من القرن العشرين، وما انطوت عليه تلك السنوات، من حروب جسدت أطماع الغرب وصراعاته للهيمنة على خيرات الشعوب واستعمارها. ولعلّ تجربتها السياسية هي خير شاهد على شخصيتها، وما فيها من نزوعٍ للبطولة وركوب الخطر، ، كما أنها تُجسّدُ طبيعة الصراع على سورية بين الدول الاستعمارية، ومدى خضوع تلك الدول للمصالح لا للعهود والمواثيق، ومثل هذه السياسة ما تزال شاخصة في أحداث الحاضر العربي وما فيه من مآس. أما الخط الثاني فقد تجّسد في السعي الحثيث لولادة الموسيقا والغناء والفن الحديث، وقد منحت الحياة أسمهان موهبة استجابت لهذا السعي، فصنعت العجائب في زمن قياسي، ولو أُتيح لها أن تعيش طويلاً لأغنت عالمنا الفني بصوتها الصادح في البرية، يتردد صداه على مدى الأيام.

وخلاصة الخلاصة:

فأسمهان لو لم تكن جميلة بصورة ما، أو جذابة، لو لم تكن رائعة الصوت لما امتلأت سيرتها بأسماء الذين تنافسوا على حبها من سادة مصر وأعيانها وكبار فنانيها. فالتابعي كان يحفظ دفتر جيب ملأه بأخبار أسمهان اليومية، وقد كتب فيما بعد عن تنافس أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي، ومراد محسن باشا مدير مكتب القصر الخاص تنافساً كاد أن يُعطّل سير العمل في ديوان الملك، وقال عنها محمد محمود خليل رئيس مجلس الشيوخ في زمن الملك فاروق " هذه البنت تقدر أن تكتسح عالم الغناء في مصر، فهي

جميلة، ومهذبة، ومتعلمة، وبنت أصل، وصوتها جميل وهكذا اجتمعت لها صفات ومواهب لم تجتمع لأية مطربة أخرى[1]، ويقول صميم الشريف: "إنها تمكنت على الصعيد الاجتماعي من بناء علاقات اجتماعية وصداقات عميقة، مع كثير من الشخصيات الفنية والاجتماعية ورجال الدولة "[2]، وفي الوقت نفسه كانت عفيفة اللسان ليس في قاموسها لفظة نابية، وتميزت بالاحتشام والإحساس الدائم بالكرامة، فهي طيبة القلب جداً، كريمة النفس، رقيقة المشاعر، مرهفة الإحساس، أصيلة العنصر والعاطفة، يقول الصحفي البريطاني فيث: " كانت إنسانة منطوية ترى بهجتها مرتبطة برؤية الآخرين حولها يبتهجون"[3]

وعلى الرغم من ذلك يمكن القول: إن أسمهان امرأة لم تنجُ من قسوة الأحكام والأفكار المتحاملة والمتشددة المتعلقة بالسلوك، لا سيّما عند مناقشة المحددات الموروثة والتقيدات التي ميزت عبر التاريخ الحقوق بين الرجال والنساء، يقول الكاتب شوقي بغدادي "إذا أردنا أن نحاكم أسمهان قضاة متزمتين يقدّسون التقاليد العتيقة في بلادٍ لا تزال المرأة فيها عرضة لاتهاماتٍ أخلاقية قاسية، فإن أحكامنا سوف تدينها، فالسلطة الذكورية ما تزال هي الحاكمة بأمرها في مجتمعاتنا، تبرّر للذكور وتحرّم على الإناث"[4].

انتُقدت أسمان كما أسلفنا بقسوة، ولم يسهل على البعض أن يرى فيها نموذجا للمرأة المتُحررة، أو المناضلة من أجل الحرية، بل يظن أنها مثّلت على

---

[1] التابعي ـ مصدر سابق ـ ص33

[2] صميم الشريف ـ ملحق الثورة الثقافي ـ 2008 العدد618

[3] شريفة زهور – مصدر سابق – ص 113

[4] شوقي بغدادي ـ المجلة العربية العصرية(الجيل) ـ حزيران 2009 ـ مجلد3 عدد6 ـ ص37

مسرح الحياة دور المرأة الضحية في كثير من فصول هذه الحياة الخاطفة ، ففي أيامها الأولى في مصر كانت ضحية الفقر الذي جعلها تتألم من مرارة العوز ووطأة الحاجة وقد تحدثت عن مشاعرها وعن أنفتها وهي خالية الجيب في قصور أغنياء مصر وساداتها. وعانت بعد ذلك من الشرور المرتبطة بعالم الفن ، فغنت وهي تكاد تكون طفلة أمام السكارى ، والسوقة في ملاهي تعّج بمن يتعاطون المخدرات ويلعبون القمار وهم يقذفونها بالألفاظ البذيئة ، وبعد ذلك أصبحت ضحية فظاظة أخيها الذي لم يتورع عن إلحاق مختلف صنوف الأذى بها ، فسجنها وضربها بقسوة ودونما رحمة ، وزرع في أعماق روحها جروحا لا تشفى ، ثم أضحت ضحية تنافس بعض رجال القصر الملكي الذين يستغلون مواقعهم للظفر بالنساء. وبعد ذلك أضحت ضحية زواج فيه البريق واللمعان وفيه الأماني المحبطة ، وذاقت مرارة الاتهامات التي اكتوت المرأة بنارها عبر التاريخ. وكانت في النهاية ضحية الصراع الذي شهدته بلادها بين الدول الاستعمارية ، وقد رمت نفسها في لجته. وظلت رغم ذلك كله تجاهد كي تبقى طائراً حراً منتجاً لذاته بامتياز. يقول شوقي بغدادي : " لقد واجهت أسمهان مأزقها الوجودي ، وكان عليها أن تحارب وحدها ، من أجل حريتها ضد جبهةٍ عريضةٍ ، متواطئة ، أو بالغة القسوة من الفقّر والحرمان ، ومن جور بعض أفراد الأسرة والعشيرة ، فضلاً عن السلطات الحاكمة المتآمرة عليها ، وأن تنتصر عليهم إنقاذاً لروحها العطشى ، وحين نجحت في بعض هذا الصراع ، حكموا عليها بالموت ، كي يتخلّصوا منها ونجحوا بذورهم فيما كانوا يدبّرون"[1]. ولا شكّ أن حياتها تذكّر بالمآسي الإنسانية التي تحفل بها الروايات والأفلام العالمية ،

---

[1] شوقي بغدادي ـ مصدر سابق ـ ص38

إنها أقرب إلى بعض بطلات تلك الروايات التي يصنعها خيال روائي مبدع مثل مدام بوفاري " لفلوبير أو " آنا كارنين " لتولستوي. ويقول أحمد برقاوي : "أسمهان تراجيديا نادرة أسهمت كالعادة بموت البطل المأساوي"[1].

لقد سعت هذه البطلة إلى أن تنعم بالحياة ما وسعها ذلك ــ كما يؤكد التابعي ـ لذلك أنفقت، وشربت، ومتعت نفسها بلا حساب، ويعود ذلك إلى يقينها بأنها لن تعيش طويلاً، ولا شكَّ أنها سعت إلى السعادة، وقد تزوجت الأمير حسن مرتين بحثاً عن هذه السعادة المفتقدة، ولكن عالم حسن كان ضيقاً أمام رحابة عالمها، وعظمة روحها، فعاشت في أتون الحب المفتقر للسعادة، ولقد أشارت الكاتبة التونسية فاطمة المرنيسي بحق إلى أسمهان قائلة: إنها " بقيت أيقونة الحب الرومانسي، التي تعلل النساء بالأماني، وكانت منبعاً ثراً للأفكار بالنسبة للنساء، اللواتي ظنن أن المجهول جدير بالمجازفة، وأن الإخفاق والنجاح لا يهمان في حياة تقوم على المغامرة، ومثل هذه الحياة ربما تكون أكثر متعة من الحياة التي تؤثر الراحة، وقتل الوقت داخل جدران البيوت"[2].

يقول أخوها منير: " كنا نقطع كعكة عيد ميلاد ابنتها كاميليا في14 تموز1944، وكان الأمير حسن حاضراً، ووصل أحد أقاربنا وقال: أما سمعتم خبر وفاة أسمهان في الراديو، فمضى الأمير حسن إلى غرفته وبكى، وفي اليوم التالي، ذهب إلى مصر للمشاركة في تشييعها، ودفنت في مصر في قبر هيأته وهي على عتبة الثلاثين من عمرها، لتبقى فلذة من روحها تلهم جميع النساء القلقات اللاتي يسعين للتصالح مع الحياة.

---

[1] د. أحمد برقاوي ـ الثورة ـ تشرين أول2008

[2] زهور ـ مصدر سابق ـ ص68- ص70

وبكلمة، يبدو أنَّ الشجاعة في حدها الأقصى، هي من سمات أسمهان الأصيلة، وتكاد تكون القاسم المشترك الأعظم لسيرتها، وبهذه الشجاعة واجهت تبعات الحياة، والحب، والغناء، والنضال، وكانت تقف دائماً على حافة الخطر، وبهذه الشجاعة اخترقت حصون الحلفاء. وبهذه الشجاعة واجهت موتها.

لقد رحلت أسمهان وخلّفت وراءها أنموذجاً استثنائياً، للمرأة الشرقية المفعمة بالصدق الإنساني ونقاء الروح. رحلت وتركت إرثاً لن يمحوه الزمن، بعد أن مرّت في هذه الحياة مرور النسيم.

